التربية والتصوف عند الغزالي
(350هـ 405هـ) (1058م – 1111م)

أ . بومانة محمد،

كلية الآداب والعلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة الجلفة

مقدمة :

لن نتكلم في هذه الوريقات عن كل فكر وفلسفة الغزالي أبي حامد، لسببين اثنين، الأول هو أن المقام لا يسمح، والثاني هو أن فلسفته مساحتها شاسعة ولا يمكن أن تحتويها مجموعة من الوريقات بل تتطلب مجموعة كبيرة من الكتب والمؤلفات والأبحاث الأكاديمية المتخصصة.

لذلك فقد اخترت الحديث في هذه المناسبة عن جزء واحد من فلسفته ونقصد به فلسفته التربوية التي تشكل جزءا لا يتجزأ من فلسفته العامة.

غير أنه لا يمكنني الإدعاء أيضا أنني سأتكلم عن كل الأفكار التربوية التي جاء بها الغزالي لأن ذلك غير متيسر أيضا، لشساعة وعمق تلك الأفكار التي تتطلب أبحاثا عديدة.

لذلك فقد اخترت أن أتناول موضوعا خاصا و مهما عند الغزالي وهو: التربية وعلاقتها بالتصوف عند هذا الفيلسوف والمربي الإسلامي الكبير.

وقبل الحديث عن ذلك تجدر بنا الإشارة إلى أن الغزالي لم يخصص كتابا خاصا يتكلم ويبسط فيه آراءه التربوية بل الذي يبحث عن تلك الآراء يجب عليه أن يبحث وينقب عنها في كل كتب ومؤلفات الغزالي وبالأخص: إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، رسالة أيها الولد المحب.

1/ الفكر التربوي عند الإمام الغزالي: إن الحديث عن الفكر التربوي عند أبي حامد الغزالي هو حديث ذو شجون، ذلك أن التربية عند هذا الفيلسوف والفقيه أخذت شكلا آخر تميزت به عما سبقها من أنماط التربية عند المفكرين والفلاسفة المسلمين، "فآراء الغزالي في التربية جاءت شديدة الارتباط بآرائه الفلسفية العامة خاصة إيمانه بفضائل التصوف والزهد"[1] ، إذن فآراء الغزالي التربوية طبعت بطبائع التصوف الذي اتخذه منهجا في الحياة وفضله عن بقية المناهج الأخرى، وهذا المزج بين التربية والتصوف عند الغزالي ليس مزجا عشوائيا إنما له مبرراته الموضوعية.

وقد جاءت معظم آرائه التربوية في كتابه "إحياء علوم الدين" هذا الكتاب الذي ألفه الغزالي متأثرا "بعوامل اجتماعية ونفسية معينة فلم يكن من الغريب أن تجئ آراؤه في التربية والتعليم مطبوعة بطابع التصوف والتوكل على الله وترك الدنيا والعمل للآخرة "[2] ، إضافة أن هذا المزج سيكون مبررا ومفهوما إذا ما اعتبرنا أن "التربية تعتبر جزءا من المذهب الفلسفي النظري أو العملي الذي يتصوره و يعتقده المرء في الحياة"[3] .

وإذا اتضح هنا الأمر، فأين يمكن المزج بين التصوف والتربية عند الغزالي؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد من ذكر بعض مقومات التصوف، فيذكر لنا الدكتور عبد الرحمـــن مرحبا في كتابه "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية" بعض مقومات التصوف عند الغزالي، والتي اختصرها في أربعة مقومات هي الزهد وحب الله والفناء في الله والإلهام [4]، وقد انعكست هذه المفاهيم والمقومات الصوفية على آرائه في التربية والتعليم ، فكيف ذلك؟

يظهر لنا هذا المزج بين الصوفية والتربية عند الغزالي جليا في تصوره للغاية من التعليم والتربية، والتي جعلها غاية دينية بحتة، فرأى أن الغاية القصوى من التعليم هي إعداد وتهيئة الإنسان للآخرة وملاقاة ربه، وهو في هذا يقول "وبهذا الاعتبار نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى ،ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة من حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل... فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم"[5]، فالعلم إذن هو وسيلة لغاية عظيمة وهي القرب من الله وتحقيق السعادة الأبدية في الآخرة، كما أنه يرى أن "العلم من وجه عبادة الله تعالى ،ومن وجه أخص صفاته"[6] ويعتبر أن مهمة العالم هو أن يكون "وساطة بين ربه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى"[7].

والإنسان لا يتعلم من أجل طلب المناصب أو التقرب من الحكام وأصحاب النفوذ، إنما يتعلم ليتقرب من الله ويطلب رضاه، ويصرح الغزالي بهذا الأمر عندما يتحدث عن وظائف المعلم الذي يرى أن من واجبه أن ينصح صبيانه ومتعلميه وينبههم إلى أمر هام، وهو "أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن"[8] ويقول أيضا في موضع آخر ناصحا المتعلمين « أيها الولد... كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كان نيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك، وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك...»[9]

فغاية التعلم إذن هي غاية دينية بحتة، وهذا ما يؤكد تأثير تصوف الغزالي على آرائه التربوية، حتى وإن كان الغزالي رأى أنه قد تكون للعلم بعض الثمار الدنيوية، ونقصد "العز والوقار ونفوذ الحكم إلى الملوك ولزوم الاحترام في الصياغ"، غير أن هذه الثمار الدنيوية ليست هي غاية المتعلم الأساسية، ولا يمكنها أن تغطي عن الثمرة الحقيقية وهي التقرب إلى الله، بل العكس من ذلك "فالعز والوقار اللذان يكتسبهما التعلم لصاحبه في الدنيا لا يأخذان أهميتهما إلا بمقدار مساهمتهما في تحقيق عزته ووقاره الأخرويين أيضا"[10].

2- المزج بين التصوف والتربية عند الإمام الغزالي:

ويظهر هذا المزج بين التصوف والتربية عند الغزالي من خلال دعوته للعلماء أن يكونوا من علماء الآخرة، وعالم الآخرة يمتاز أساسا بأنه "لا يطلب الدنيا بعلمه فإنه أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها"[11].

فالغزالي يدعوا إلى تقليل العلائق مع الدنيا حاله في هذا حال كل الصوفية، وهو يصرح بهذا عندما تحدث عن آداب المتعلم ووظائفه، فرأى أنه من واجب المتعلم أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة، أي أن المتعلم يجب أن يشغل نفسه كثيرا بالدنيا وبمتطلباتها وشهواتها، فإنه يصطفيه ويحبه ويعرفه ويقربه منه ويشهد حضرته ويأنس به ويناجيه ويعشقه ويتعشقه"[12].

فالإعراض عن الدنيا الفانية والإقبال على الآخرة الدائمة، هي الدعوة الأساسية التي وجهها الغزالي إلى المتعلمين، فبين لهم أن القصد والغاية من التعلم إنما هو "القرب من الله سبحانه وتعالى والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران"[13].

فالغزالي إذن لا يعير أي أهمية إلى الدنيا وشهواتها، لأنها فانية ونعيمها مؤقت، ويقبل على الآخرة لأنها دائمة ونعيمها دائم، و يعتبر العالم الذي "لا يعرف حقارة الدنيا وكدارتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفوا منها فهو فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له"[14].

كما انعكس تأثير التصوف على الفكر التربوي عند الغزالي في تصوره لمصادر المعرفة، التي تكتسب عنده من طريقين، التعلم الإنساني والتعلم الرباني، وفي هذا يقول «اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية إنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا»[15]، وهو تطلع إلى العلم اليقيني مثل بقية الصوفية « الذي يكتشف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك»[16].

فالظاهر أن العلم اليقيني هو العلم الذي لا يبقي معه شك أو إبهام أو التباس بل هو صحيح دوما، لكن ما مصدر هذا العلم؟

يخبرنا الغزالي أن هذا العلم اليقيني لا يأتي عن طريق الحسبان أو العقليات، أي أنه لا يكتسب بل يأتي «عن طريق النفث في الورع أو القذف في الصدر، وهذا هو النور الإلهي الذي أفاض الله به عليه فانكشفت له البديهيات والحقائق الأولى»[17].

فهذا العلم اليقيني لم يتحصل عليه الغزالي«بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مصدر أكثر المعارف»18، فالغزالي إذن في آخر حياته عانى وقاسى نفسيا عند ما شك في كل المعارف التي يعرفها، لكنه توصل أخيرا أن مصدر المعرفة اليقينية هو الإلهام، أو النور الذي يقذفه الله في القلب، ولا يقصد الغزالي بالقلب اللحم أو الدم، بل يقصد به حقيقة روح الإنسان التي هي محل معرفة الله[19]، أما العلوم والمعارف التي تأتي من غير هذا المصدر الرباني، فمشكوك فيها ومطعون في صحتها.

3/ في أقسام العلوم :

أما عن أقسام العلوم، فالغزالي يقسمها تقسيمات دينية بحتة، فهو تارة يقسمها إلى ماهو فرض عين وما هو فرض كفاية، والعلم الذي هو فرض عين هو «اعتقاد وفعل وترك»[20] ويقصد الغزالي بالاعتقاد الإيمان والتصديق بالله، أما الفعل فيقصد به فعل ما يأمر الله، أما الترك فيقصد به ترك ما نهى الله عنه وهذا العلم هو فرض على كل مسلم.

أما العلم الذي هو فرض كفاية فهو «كل علم لا يستغنى عنه في قوام الدنيا، كالطب في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها»[21]، وهي علوم يجب على المسلمين تعلمها، لكنها ليست مفروضة عليهم كلهم، إنما يكفي أن يقوم بها أحدهم فيسقط الفرض عن الآخرين.

وفي تقسيم آخر يقسم العلوم إلى علوم شرعية وهي ما أستفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليها مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماء مثل اللغة، وهي كلها محمودة ومطلوبة، وإلى علوم غير شرعية، وهي من إنتاج العقل الإنساني وغايتها دنيوية بحتة، وتنقسم هذه العلوم غير الشرعية إلى ماهو محمود وإلى ماهو مذموم، وإلى ماهو مباح.

ولا يرى الغزالي تعارضا بين العلوم العقلية والنقلية، وفي هذا يقول «وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه»[22]، ويقول أيضا«..الداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل مع أنوار القرآن والسنة مغرور»[23].

فليس هنا تعارضا بينهما، إنما الغزالي يعطي الأولوية والأفضلية لتعلم العلوم النقلية، وفق ما كان سائدا آنذاك ونلاحظ من خلال هذه التقسيمات المتعددة للعلوم، التصور الديني للتربية والتعليم عند

الغزالي، فهو ينظر إلى قضاياهما دائما بمنظار الدين، فيقبل ما يوافق الدين ويرفض ما يخالفه، ويرفض كل العلوم التي لا تحقق الغاية الأساسية من التربية وهي التقرب من الله وطلب رضاه.

ولا يعطي الغزالي أهمية كبيرة للغايات الاجتماعية والنفعية التي يمكن أن يحققها العلم لصاحبه، وهذه نقطة تؤخذ عن الغزالي، وهو ما جعل أحد الدارسين يعتبر أن هذا النوع من التعليم يرتكز على حالة اللاوعي، وهو ما يتناقض مع العقل، الذي يقوم على أساس حدود معلومة و«لعل أوضح هذه الحدود أن يكون المحكوم بعقله في حالة من الوعي»[24]، هذا بالإضافة إلى أن الدنيا بهذا التعليم الصوفي «لن تتقدم به قيد أصبع واحدة»[25].

لكن رغم ذلك يبقى أبو حامد الغزالي من أعظم الفلاسفة والمربين المسلمين، وتبقى أفكاره مصدر إلهام واع لدى الكثير من الباحثين ،ليس المسلمين فقط، بل حتى الغربيين رغم أن أفكاره مرتبطة بإطار زماني ومكاني معين.

الهوامش المرجعية :

1-أنطوان خوري: أعلام التربية حياتهم آثارهم، دار الكتاب اللبناني 1964 ص.29

2-د: سيد إبراهيم الحيار: دراسات في الفكر التربوي، مكتبة غريب ص131.

3-الأهواني: التربية في الإسلام، ط2 دار المعارف مصر ص221.

4-محمد عبد الرحمان مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ط3 دار المطبوعات الجامعية الجزائر ص695.

5-أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ج1، دار الثقافة الجزائر ص21.

6-المصدر نفسه، ص22.

7-المصدر نفسه، ص.22

8-المصدر نفسه، ص.75

9-الغزالي: أيها الولد المحب، حققها وعلق عبد الله أحمد بوزينة، الجزائر، مطبعة صاري، 1987ص33-34.

10- حمانة البخاري: التعليم عند الغزالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،ص40.

11-الغزالي: إحياء علوم الدين، ج1،ص.70

12-أحمد خواجة: الله والإنسان في الفكر العربي الإسلامي، ط1، منشورات عويدات، بيروت، ص.179

13-الغزالي: إحياء علوم الدين، ص.71

14-الغزالي: المصدر نفسه، ص.70

15-الغزالي: الإحياء، ج3، ص.132

16-أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، ت جميل صليبا، وكامل عياد، دار الأندلس، ص.151

17-محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع نفسه، ص.626

18-الغزالي: المنقذ من الضلال، ص86-87.

19-المصدر نفسه، ص.82

20-الغزالي: إحياء علوم الدين، ص.23

21-المصدر نفسه، ص.26

22-المصدر نفسه، ج3، ص.131

23-المصدر نفسه، ص.130

24-زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشروق، ص.427

25-المرجع نفسه، ص430.